مكتبتى ٤٩

شمس البهلوان

تأليف : ثريا عبد البديع
رسوم : عاصم عبد القادر

دار المعارف

تصميم الغلاف: محمد أبو طالب

تنفيذ المتن والغلاف
بالمركز الالكترونى
دار المعارف

رقم الإيداع	٢٠٠٣/١٣٣٩٩
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-6482-2

٧/٢٠٠٣/٢٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – ج . م . ع
ها تف: ٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-Mail: maaref@idsc.net.eg

إعداد الماكيت: أمانى والى

إهـــداء

إلى البطل صلاح الدين
وإلى فتيان فلسطين....

يأتى اللَّيْلُ ليسكنَ بيتُ أمِّ شمس وَبُيُوت جِيرانهَا، تهدأُ حَرَكةُ الكبارِ والصِّغَار ، وينـامُ اللَّيل والنَّاس، إلاَّ هو لمْ ينمْ بعدَ صلاَةِ الفجرِ يدخُلُ دَارَه، متوجِّهًا إلى المَطْبخ؛ باحِثًا عنْ طعامٍ يسدُّ جوعَه بعدَ يومٍ طَويل. يسعدُه حظُّه أنْ وجدَ كِسْرةً منَ الخبزِ الجَاف، قبلَ أنْ تسبقَهُ إليهَا، تلكَ القِطَّةُ الملْعُونة.

تتربَّصُ القِطَّةُ بفتاتِ الخُبْز، رغمَ حِرْصِ أم شمس عَلى أنْ تدخرَهَا للغَد ، لكن القطةَ الملعونة تتحايلُ - دائمًا - وتصِلُ إلى هدفهَا.

الحمدُ للهِ عَاد شَمْسٌ مبكرًا اليوم، فوجدَ بعضَ قِطَعِ الخُبْز، أسرعَ بالتهَامِهَا.ذلكَ الخبزُ الذِى يرفضُ أنْ يأْكله أمَامَ الآخرين.

الجميعُ يعرفُ أنَّ «شَمْس» لاتمتدُّ يَدُه إلى خبزِ الإعَانَات، ولا يقفُ فى طابورِ الطَّعَام، فَهو ابنُ بدرِ الفِدَائى، حفيدُ عَائلة كَرَامة. يموتُ مِنَ الجُوع، ولايفعلُ ذَلك، لكنْ عليْه الآن أنْ يُسكتَ صراخَ مَعِدته الجَائعةِ؛ ليَسْتَطِيعَ النوم.

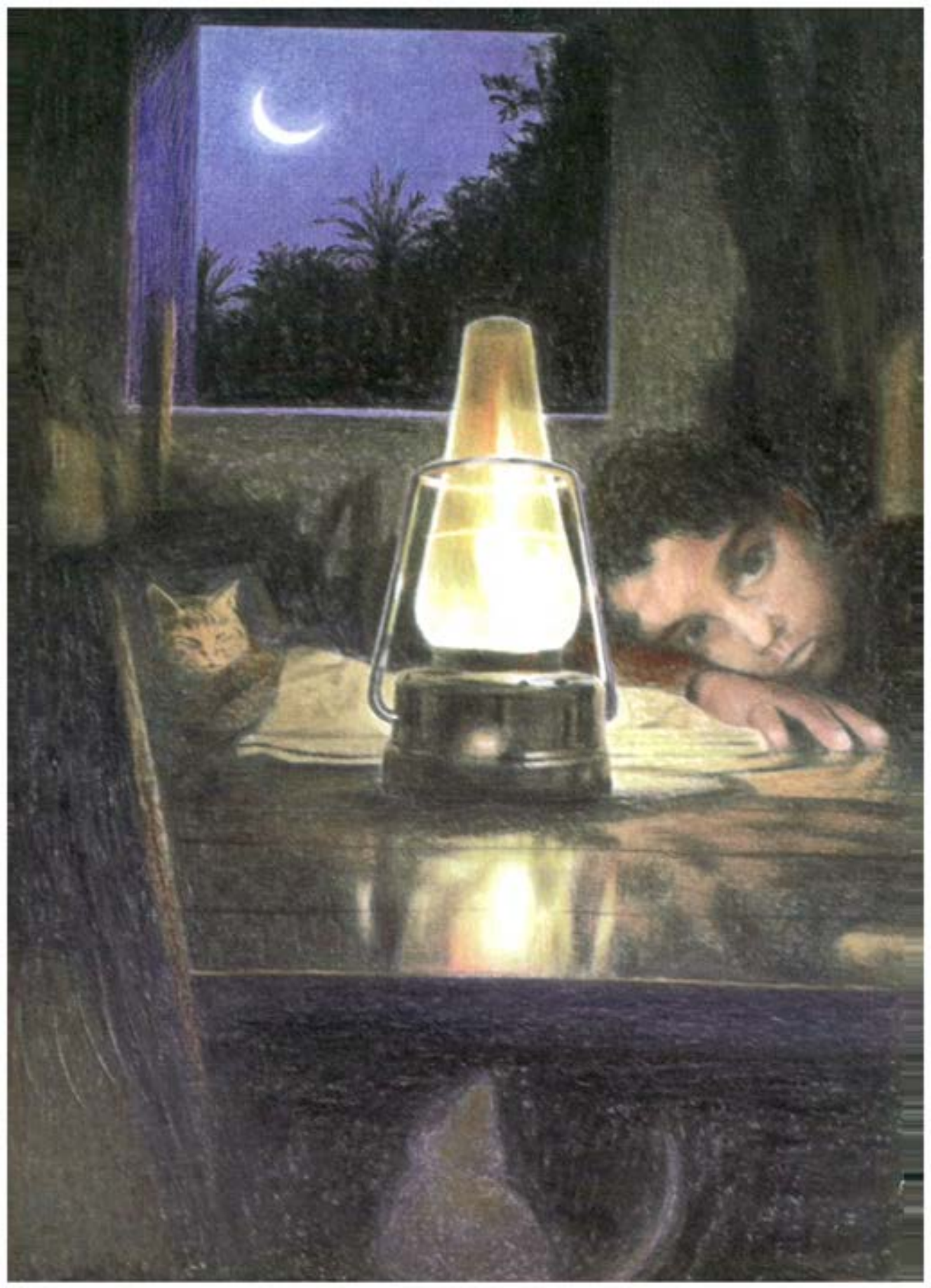

كَانَ ذلك حَالُ «شَمْسٍ» كُلَّ ليْلة، بعدَ طُولِ سَهَرٍ معَ الكبارِ والأَجْدَاد، يسمعُ منهم حكاياتٍ كَثِيرة، عن الأَبْطَالِ والفِدَائيين، يتعلمُ مِنْهم كيفَ كَانُوا أَبْطالاً؟! يسمعُ حكاياتِ عَائِلته، الذينَ بذلُوا دِمَاءَهم لتحقيقِ العزَّةِ والكَرَامَة. سمعَ منهم حكَايَات الهلاَلية وعَنترة بن شَدَّاد، وحينَ يعودُ إلى فرَاشِه، يستعيدُ الحكايَاتِ، ويظلُّ مُسْتَيقظًا يفكرُ فِيهَا.

كانتْ حكَاية اللَّيلة عنْ البطلِ صلاَحِ الدين الأَيوبى. عَنْ نَشْأته، وحَيَاته، وذَكَائِه، عنْ عدْلِهِ، وَحرية مُمَارسةِ الأديانِ فِى زَمَنه، وَرَحْمته بالنسَاء، والأطفالِ والشيوخ، منَ الأَعْدَاء.

أحبَّ شمسُ البطَلَ الأَيوبى، عشِقَ سِيرَته، وسَيْفَه، وفَرَسَه. أحبَّ حتَّى اسمَه الجَمِيل، نِعْمَ القائدُ والبطَلُ أنتَ يَا صَلاَحَ الدِّين. لَيْتنى عشتُ يومًا منْ أَيَّامك، كانتْ أَيام عِزٍّ وفخْر. ولم يزلْ يفكرُ حَتَّى يَغْلبَهُ النَّوْم.

فِى الصَّباح، حينَ تشرقُ الشمسُ، وينتشِرُ ضَوءُهَا، تحاولُ أمُّه أَنْ تُوقِظَه، فتقولُ له:

- قُمْ يَا شَمس، انهضْ يَا وَلَدِى، لاَ أَحَدَ نائمٌ إلاَّ أنت.. هَيَّا يا بنى لتذهبَ إلى المدرسَة.

يهبُّ شمس منَ السَّرير:

لَنْ أذهبَ إلى المدْرسَةِ لاَ اليومَ ولاَ غدًا.. مَاذَا أتعلَّم؟ ومَاذا فَعَلَ مَنْ تعلَّموا قَبْلَنَا؟ لاَزِلنَا مَظْلُومينَ مَقْهورين. كَانُوا مِنْ قبلُ يتعلَّمونَ الفروسيةَ والرمَايةَ والتَّخْطِيطَ للنَّصْر. أَمَّا الآن فمَا عَاد شَىْء يَسْتحقُّ التَّعْليم.

- ربنَا يهديكَ يا وَلَدِى.. انظرْ لكلِّ أطفالِ الأَرْض، تراهُمْ يعملونَ فِى الصَّباح، وعندَ المساءِ يتعلَّمونَ فِى المدرسةِ اللَّيلية، ومنهُمْ حَميدُ ابنُ عَمِّك، وجِيرَاننا سُميَّة وطَارق وخَليلة.

- لَسْتُ مِثْلهم ولَنْ أكون، لَنْ أزرعَ القمحَ والزيتونَ ليسْرِقَه المُعْتدون، لَنْ أحملَ صندوقَ الأَحذيةِ أنحنِى تحتَ أقدامِهم؛ لأنظِّفَ أَحْذِيتَهُمْ ثم يَرْكُلُونَنِى بهَا.. لاَ.. لنْ أفعلَ ذلك.

- مَاذَا بِكَ يَاولدِى.. لَمْ أركَ غاضبًا هَكَذَا مِنْ قبل!!

- لمْ أَعُدْ أحتمِلُ الظلمَ يَا أمى.. أينَ أرضُ أَجْـدادى ؟ أين مالهم؟. سُرِقَ كلُّ شىء،لنعيشَ الآنَ نحنُ أصحاب الحقِّ فِى هَذِه الغُرفِ الفَقِيرة،حيثُ لاشمسَ ولاَهواءَ ولاَ مَاء.

سكتَ شمس لَحْظةً، ثم قال وكأنه تذكَّرَ شيئًا:

- أمى، لاتَنْسِى زيارة جَارتنا خَلِيلَة، فقد بُترتْ إحْدَى سَاقيْهَا ليلةَ أمْس. أطلقَ الجندُ عليهَا الرصاصَ، لَمَّا سَارت فى شَارِعِ الخَليلِ دونَ تَصْريح.

خرجَ شمسٌ غاضِبًا، بعدمَا فَشَلَ فى الحصُولِ على مَاءٍ يغسلُ به وَجْهَه وهو يَصيح:

- حَتَّى المَاءَ حَرَمَنَا الأعداءُ منه!

حينَ يخرجُ شمسٌ يلتفُّ حَوْله الصغَار، لايحلُو لَهم التجمُّعُ إلاَّ مَعَه وحَوْله، يلعبُ، يتنطَّط، يتشَاقَى، يَتَشَعْبَط.. هو أمهرُ واحدٍ فى لعْبَةِ الزِّير، يختفِى بجسْمِه النَّحيل دَاخِلَ الزيرِ فِى ثانيةٍ وَاحِدَة، ويخرجُ بحركَةٍ بهْلَوَانيَّةٍ سَرِيعَة؛ لذَا أطلقُوا عَليْه اسم «شمس البهلوَان». يضحكُ الأولادُ ويُصَفقون بفرحٍ فيقُول شَمْسٌ :

- أنا شمس البهْلَوَان.. عَمِّى الحَاوِى، وَأَبِى الأُلْعُبَان.

يفتخِرُ بأَهْلِهِ الفِدَائيين، عمه الحاوِى كانَ مَاهِرًا فِى الألاعيبِ مع المُحْتلِينَ، ودائمًا ينتصِرُ عَلَيْهم، وكَانَ أبوه

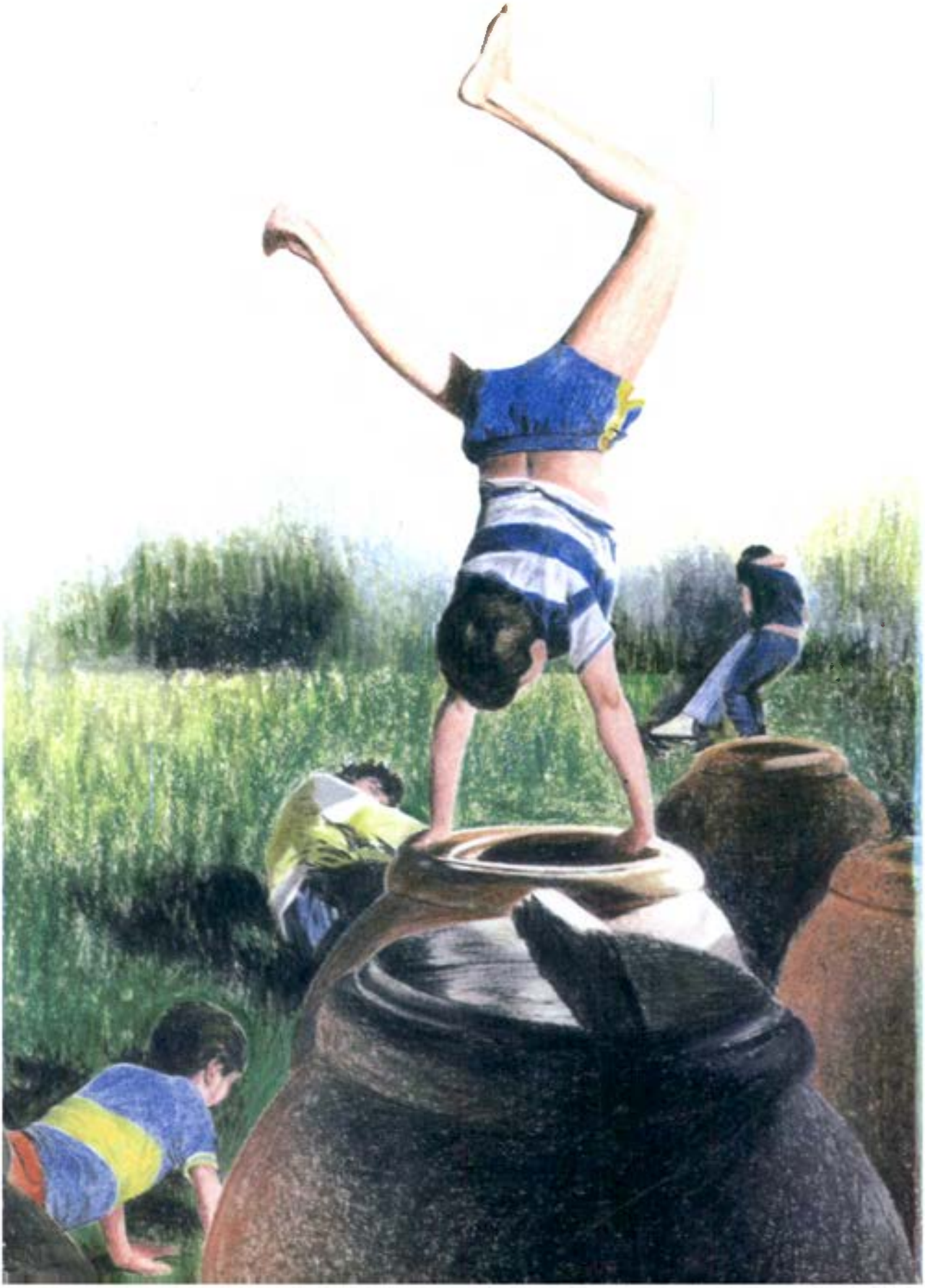

بدرٌ الفِدَائى الأُلْعُبَانُ، يناورُ الأعْدَاء، ويتخفَّى مِنْهم، ويخسرُ المحتلُّ بِسَببه عَشَرَاتِ الجُنُود، حتَّى أسمَاه أولادُ البلدِ بَدْرًا الأُلْعُبَان.

كانَ يحْكى للأولادِ حَكَايَاتِ الكِبَار والأجْدَاد، منهَا حقيقىٌّ، ومنها مِنْ نَسْجِ خَيَالِهِ الخِصْب. حكاياتٌ كثيرةٌ يحفظهَا فِى قَلْبِه، كانَ يحبُّ حكايةَ البطلِ صَلاَحِ الدِّين، ويخلقُ منهَا ألفَ حكايةٍ وحِكَاية. هَذِه هِىَ حكايةُ اليومِ يَا أصْحَابى.

ينطُّ ويتنطَّطُ، يجرِى عَلى أرْبَعٍ، يعملُ نفسَه فرسًا، ويعملُ نفسَه فارسًا، يخطبُ فى الجندِ مثل القائدِ، يرفعُ سيفَهُ عَاليًا، ويقفُ فوقَ صَخْرةٍ كَبيرَة، ويقول:

- بسم الله.. والحمدُ والشكرُ له.. يَا جُندَ الله.. هاهى القدسُ مقيَّدَةً بأغلالِ الذل.. هاهو المسجدُ الأقصَى يستغيثُ منْ وَرَاء الأَسْوَار، جاهدُوا أعداءكُم وأعدَاءَ الله، قَاتِلُوا وسدِّدُوا ومزِّقُوا مِنْهم كُلَّ بَنَان. هَيَّا تقدَّموا يَا رِجَال.. تقدَّموا يا جندَ الله. وإنمَا هِىَ إحْدَى الحُسنييْن:

النصرَ أو الشهَادة، وأنا أولُ منْ يطلبهَا فِى سبيلِ الله. ولكنْ إيَّاكم أنْ تمسُّوا شجرةً أَوْ دَابَّةً فِى أرضِ الأعْدَاء، ترفَّقُوا بكلِّ طفلٍ وكُل النسَاء.

هَيَّا إلى المسْجِدِ الأقْصَى.. هَيَّا إلى المسْجِدِ الأقْصَى.

وَارْتسمَ فى ذهنِ القائدِ شمسٍ، مشهدُ المسجدِ الأقصَى وسُوره يلتفُّ بالأسْلاَكِ المُكَهْرَبَة، ثم أضَافَ:

- إنَّ المسجدَ الأقصى يُنَاديكم أَنْ تُحرروه.. فُكُّوا وثاقَ القُدْسِ يا جُنْدَ الله.. إلى الجِهَاد.. إلى الجِهَاد.

يُصَفق له الأَوْلاد.. وينتبهُ شمسٌ لمَا حَوْله، ليجدَ نفسَه مُمْسكًا بعصَاه الخشبيَّة، لاَ هِىَ سَيْف، ولاَ هو قَائِد؛ إنمَا هو شمسٌ بملابِسِه الرَّثَّةِ وَحَوله أصْحَابه، جَوْعى وعَطْشى مثله. هم جَمِيعًا عَلى حَالِهِم مِنَ الفقرِ والظُّلْمِ والقَهْرِ وانعِدَامِ الحِيلَة، لا يمْلِكُونَ إلاَّ الحِكَايات..

جلسَ شمسٌ يَبْكى، وقد التفَّ حَوْله الأولادُ يبكُون.

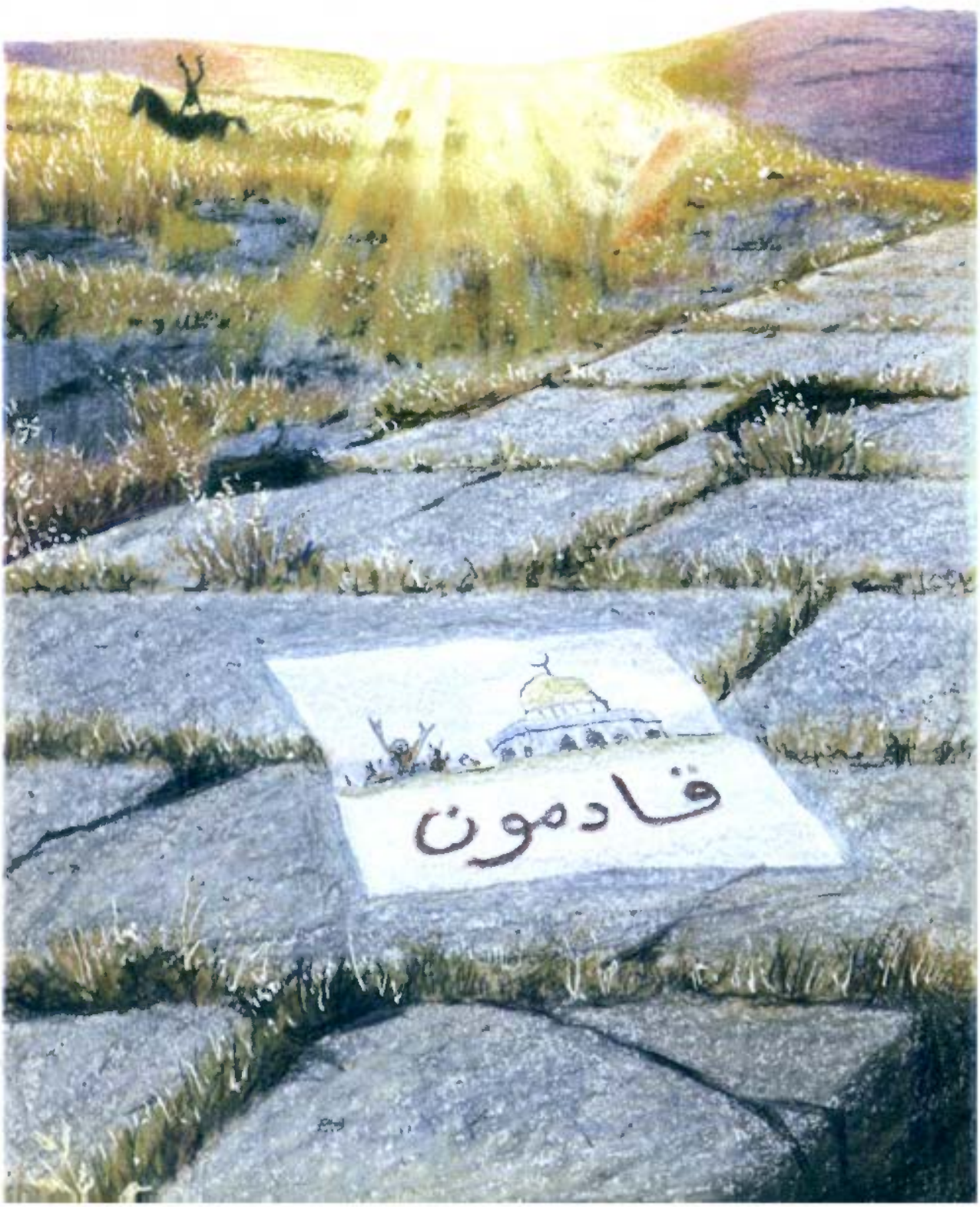
قادمون

شمس يصلى فى المسجد الأقصى

لَمْ يَسْهَرْ شَمْسُ تلكَ الليلةَ معَ الأجدادِ ليسمعَ الحكَايَاتِ، بلْ سهرَ يفكرُ فى أَنْ يعمل بنفْسِهِ إحدى الحكايات، يكونُ بطلهَا شمس البهْلَوَان؛ يَحْكيهَا الصغارُ بعدَ زمنٍ طَويلٍ، لمْ يكنْ فِى رأسهِ إلاَّ الذهابَ لعملِ شىء، لكنْ مَا هو هَذَا الشىء.. لمْ يعرِفْ بعد.

تلفَّتَ شمسٌ حَوْله، ينظرُ إلى كلِّ شىءٍ فى غُرْفته؛ لأنه لا يعلمُ إنْ كانَ سيعودُ ثانيةً أم لا.. هَذِه الحجرةُ التِى لْم يرضَ عنها يومًا ما، ولم يُحِب بَقَاءَه فيهَا، الآن يشهدُ لهَا أنهَا كانتْ مأوَاه، ولطالمَا احْتمَى بجدرانهَا مِنَ الأَمْطار، وسَكَنَ إليهَا بعدَ طول نهار.

تحَسَّسَ الصبىُّ بيدِهِ مصباحَ الكِيرُوسين يُوَدِّعه، ونظرَ منَ النافذةِ الوحِيدةِ، التى تُطِلُّ عَلَى الخرَابَةِ الكَبِيرَة، حَكَى له الشيوخُ أنهَا كانت حَدِيقةً غَنَّاء، خَرَّبَهَا المُحْتل،

والآن مُلِئَتْ بالدباباتِ والذَّخِيرَة، وبَنَى جنودُ الاحتلالِ عَليها ثَكَنَاتٍ لَهُمْ.

أمسكَ شَمْسٌ ما كانَ فِى الحُجْرةِ مِنْ لعبٍ صنعهَا بيدِهِ معَ رِفَاقِه مِنْ عرائسَ وحيواناتٍ ودباباتٍ وطائراتٍ، صنعَ بعضهَا مِنَ الصخورِ ، وبعضَهَا مِنْ قطعِ الأخشَـاب.

نظرَ إلى بعضِ صُور قديمةٍ لبلاَده الجَمِيلة، كمَا كانت أَيَّام زمَان، تَحسس سَرِيرَه الصغيرَ الذِى يضُمُّه مَعَ أُمِّه، فكَّر فِى حَالها حينما تستيقظُ ولَمْ تجدْهُ بِجِوَارهَا، ودعَا ربَّهُ أنْ يعودَ سالمًا مِنْ أجلهَا، قبَّلَ جبينَهَا بِرِفق، وحَتَّى لا يُوقظهَا هَمَسَ وقَالَ:

- معذرةً يَا أمى سوفَ أَترُكُك، ولا أعلمُ إنْ كَانُوا سيسْمَحونَ لِى بِالعوْدَةِ، لكننِى ذاهبٌ إلى هناكَ، إلى المسجدِ الأَقصى لأُصَلِّىَ فيه ، هَذا حقٌّ عَلَىَّ للمسْجِد، ولَنْ أتنازلَ عنْ حقِّ الصَلاةِ فيه أبدًا ، وإلا فالموْتُ أَهْوَنُ وأكرَم.

سَار شمسٌ فِى طريقٍ وَعِر، يحدِّثُ نفسَه. مِنْ هَذَا الطريقِ سَارت جيوشُ صَلاح الدين، تلفَّتَ حولَهُ لعلَّه

يَرَى شيئًا مِنْ آثارِ لأقدَامِ جُنْدٍ، أو خيلٍ ، حتَّى وصلَ بعدَ جُهدٍ إلى جدَارِ صحْنِ المسـجدِ المُسَوَّر بالأسلاكِ المُكَهْرَبَة.

وكانَ عليه أَنْ ينتظرَ إلى أَنْ تتبدلَ دورياتُ جندِ الاحْتِلاَل، فَهُمْ يتبادلُونَ مَوَاقعهم فِى هذَا الوقْت، عندَ طُلُوعِ الفجْرِ كُلَّ يَوْم، وعندئذٍ تَنْفَصِلُ الكهرباءُ عنِ الأسلاكِ لدقَائق.

وَتَحَيَّنَ الصَّبى الفرصَة، أسرعَ بعبورِ الأَسْلاك، غيرُ مُصَدِّقٍ هَذِه النعمَةَ التِى أنعمَ الله عليه بهَا، فهو الآنَ فى صحْنِ المسْجِدِ الأقصَى، أُولَى القِبْلَتيْنِ وثالثُ الحَرَميْن.

هَبَّتْ عَلى شمسٍ نسماتٌ مُعَطَّرَة بأَرِيجٍ يردُّ الرُّوحَ، فاسْتنشقَ مِلْءَ رئَتيْه، ثُمَّ تلفتَ حَوْلهُ مُتَأَمِّلاً ذلكَ المكانَ المباركَ الذِى شهدَ المعْرَكَة الكُبْرَى، معركةَ التحْرِير الأُولَى. وبدأَ يبحثُ عنْ شىءٍ لا يعلمُ مَا هو؟! لعلَّه شىءٌ منْ بقايَا المعْرَكَة. نعم لابدَّ أنَّ البطلَ صلاحَ الدين قَدْ

ترك وَرَاءَه أثرًا له هُنَا أَوْ هُنَاك، قد يكونُ مِسْمَارًا لِنَصْلِ سَيْفه، أو يكُونُ رِبَاطًا لِحِذَائه، وربمَا تكونُ هناكَ نُقْطَة مِنْ دِمَاءِ جُنُوده الطاهِرَة.

بحثَ .. وبحثَ.. ولَمَّا لمْ يَجِد الصَّبيُّ شيئًا، هَمْهَمَ بكلاَم:

- لماذَا لمْ تتركْ لِى شيئًا منكَ يا بَطَل؟! لم تتركْ لِى أَىَّ أَثَرٍ أوْ دليلٍ يَهْدِينى إليكَ، هَلْ كنتَ حَقِيقةً أَمْ خَيالاً؟

إنْ كنتَ حَقيقةً، فنحنُ بحَاجةٍ إليكَ الآن أيهَا البطلُ العَظِيم، هلْ أنتَ رَاضٍ عَمَّا يحدثُ لَنَا؟! لَقَدْ أُهْدرت الدمَاء، وحُرِّقت المنَازل، وقُتِلت النساءُ والأطفال، وضَاعَ الأمَان. لقد أَرْهقَنَا الظلمُ والقَهْر، وزادَ بطشُ المُحْتل وتَجَبُّر، ونحنُ فى حَاجةٍ إليك، فقد مَاتت الرحْمَة، وغَابَ العدلُ مِنْ بعْدِك.

أُنَادِيك.. ويُنَاديكَ كلُّ أطفالِ بِلاَدى.. فنحنُ جَوْعى وعَطْشى.. أتمنَّى أَنْ أعيشَ يومًا منْ أَيَّامك.. فأنا أرفضُ العيشَ فِى هذَا الزمانِ.. وأتمنَّى أنْ أعيشَ فِى زَمَانك.. ذَلِك الزمنُ الجَمِيل.

خارتْ قُوَى الصَّبى، وبكَى بُكاءً شديدًا اهتزَّتْ له أعمِدَةُ الصَّحن، لكنه سَمِعَ صوتًا:

- انهضْ يَا شمْس.. قُمْ وَلاَ تبكِ.

تلفَّتَ شمس حَوْله فَلَم يَرَ صَاحبَ الصَّوت، فتسَاءَلَ:

- أينَ أنتَ.. مَنْ أنت؟

أجابَ صَوْتٌ: أنا مَنْ تبحثُ عنه.

ففرِحَ الصَّبى، وقَفَزَ وقالَ:

- هَلْ أنتَ.. أنتَ.. هَلْ أنتَ عَائِدٌ إلينا؟! هلْ أنتَ قادمٌ لتخلِّصَنَا؟!..

- الزمنُ الجميلُ قادمٌ يا شمس، ولابدَّ أنْ يعملَ الجميعُ لِذَلك حتَّى تسعدَ أنتَ، ويسعدَ كلُّ أطفالِ الأَرْض.

- مَتى .. مَتَى يَعود؟

- يعودُ الزمنُ الجمِيلُ عندمَا تعمَلُ ، ويعمَلُ الجميعُ.

- أتمنَّى أَنْ أكونَ بطلاً.

- هَلْ سَلكْتَ طريقَ البُطُولَةِ يا شمس ؟ ! إنه طريقٌ طويلٌ وصَعْب.

- لكنْ مَنْ أنت؟ هَلْ أنتَ البطلُ صلاحُ الدين؟

- لا.. لا يا شمس أنا الزمنُ الجميلُ، وأنا عائدٌ وسأختارُ مِنْ بينكُمْ خليفةً للبطلِ الحبيبِ إلى قلبى صَلاح الدين. فاسْتعد يا شَمْس.

ذهبَ الصَّوت، فَانشرحَ صدرُ شمس، وصَلَّى فى المسجِدِ داعيًا اللهَ وشَاكِرًا له. ولَمَّا ذهبَ فى طَرِيقهِ، لمْ ينتبهْ إلى بقَايَا الأجسَادِ المتناثِرَةِ حَوْله، ولَمْ يستمعْ إلى دَوِىِّ المدَافعِ وصرَاخ البنَادِق.

نَظَر إلى السيفِ الخَشَبى الذِى لمْ يزلْ فِى يَدِه، قَذَفَهُ بعيدًا إذْ لمْ يعدْ فِى حَاجةٍ إليه.

سَارَ يفكرُ فى مدرسَتِهِ وزُمَلاَئِه ، ويفكرُ فِى مُسْتقبل بِلاَدِه، وكيفَ يُهيِّىءُ نفسَه، ليصبحَ البطلَ الجَدِيدَ، يسْتقْبِل الزمنَ الجمِيلَ بأسْلحَةٍ حديثَةٍ وَأفكَارٍ جَدِيدَة.

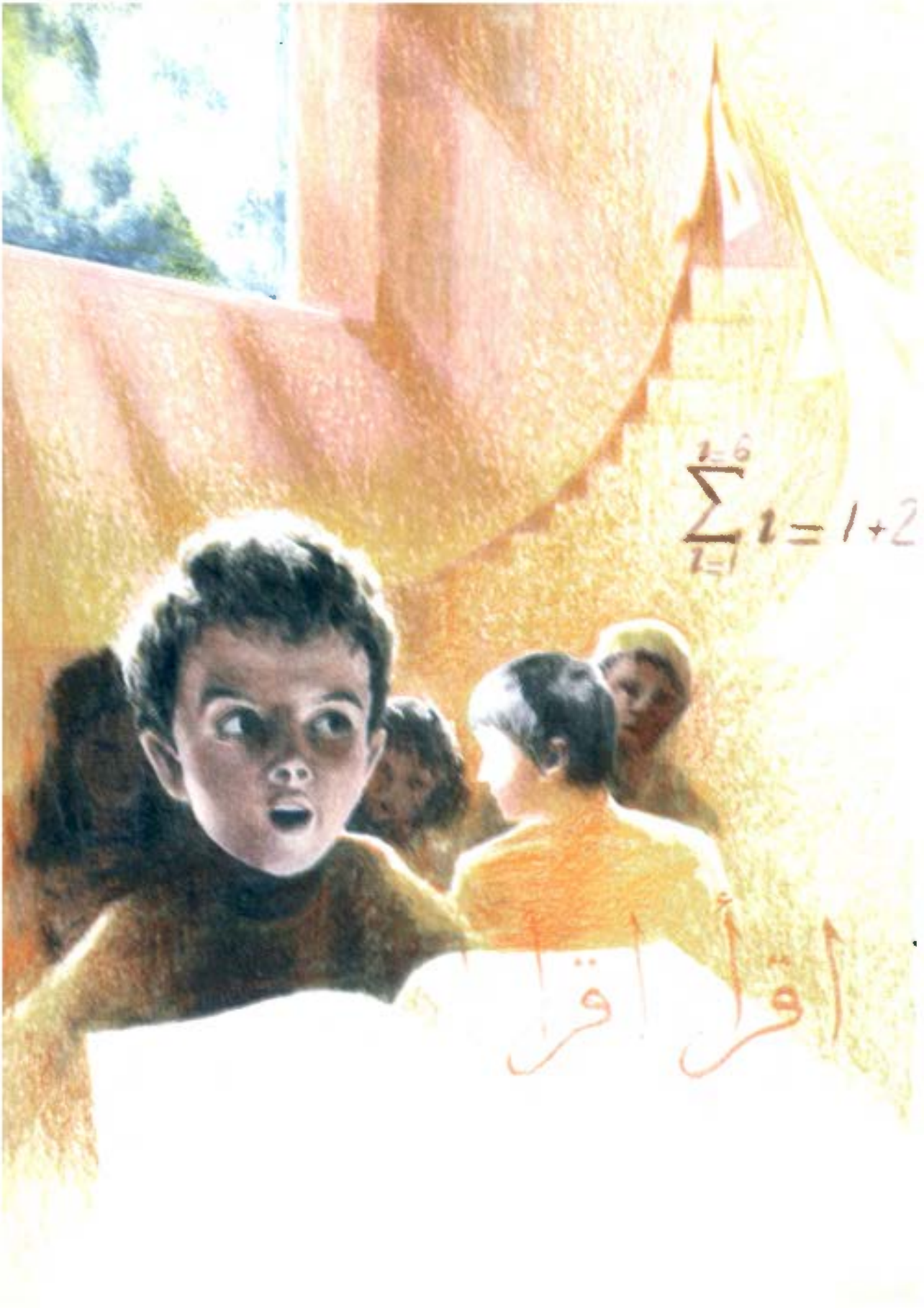
$\sum_{i=1}^{i=6} i = 1+2$
اقرأ

غدًا نأكل الحلوى

عندمَا تقتربُ الشمسُ مِنْ مَبيتهَا، أكونُ قَدْ خرجتُ منَ المَصْنع، ذَاهِبًا إلى المدْرَسَة. وفى الطريقِ أقابلُ جماعَاتِ الأَوْلادِ الفِدَائيين وهم يردُّونَ عَلى اعتداءَاتِ الجُنْد ورصَاصهم بالحِجَارَة، أَتمنَّى أَنْ أكُونَ معَهم وَأشَارِكهم عَمَلَهم البُطُولى، لكننِى لنْ أستطيعَ ذَلك؛ حتَّى تكْبُرَ أختِى صَابحة؛ لتعْتنِىَ بِأمى، فليسَ هناكَ مَنْ يعتنِى بِأمى غَيْرِى، بعدَ مَا فقدَتْ بَصَرَهَا.

وحتَّى يأتِى ذَلِكَ اليوم الذى تكبرُ فيه صَابحة، فأنا أَدرسُ فى إحدَى المدَارسِ اللَّيلية، بعدَ انتهائِى منَ العمل كأولَادِ البلدِ الرَّاغِبينَ فِى التَّعْليم. أَنَا أعلمُ أننِى أستطيعُ أَنْ أنفعَ بَلَدِى بالعِلْمِ؛ فهو سلاحٌ أيضًا مثل سِلاَحِ الحِجَارة.

فى مَدْرَستِنَا اللَّيليةِ عَدَّةُ خِيَام مِنَ الصَّفيحِ للصفوفِ المُخْتلفة، عندمَا تهبُّ الريحُ ، تبدأُ خيمتُنَا تُصَفِّرُ وتَصْرُخُ، وتردُّ عليهَا الخيامُ الأُخرى بنفسِ الصَّفيرِ والصُّرَاخ. هى أصواتٌ تفزعُ الصغَار، وكأنهَا أصواتُ الأشبَاح، لكننِى وزُمَلائى اعتدنَا سَمَاعَهَا؛ فإننا نسمعُ أصْوَاتًا أكثرَ منهَا قوةً، ورعْبًا، إنهَا أصْواتُ طلقاتِ المدافعِ والرصَاصِ التى بدأنَا نَأْلفهَا أيضًا.

وَفِى خيمتنا، نفرشُ - جميعًا - الحصِيرَ، ونلتفُّ حولَ الطبيبة (روز) ، ويأتِى أحدُنَا بقطعةِ قُمَاشٍ منْ دَارِه؛ لتجلسَ عليهَا الطبيبةُ، أكثرَ الله مِنْ أمثالهَا ، فى قلبها حُبٌّ وخيرٌ كَثِير ، تركَتْ بلدهَا وكلَّ شىءٍ ، تطوَّعَت -مُهَاجِرَةً إلينَا ومعها ابنُهَا (جون) - لتعالجنَا وتحكِى لنا حكاياتٍ جميلَةً تعيشُ بيننَا، ونتناولُ طعامنَا الجَافَّ الذِى نتسلَّمه من طابور الإعانات الذِى يَأتينا من الخارج، ومثلهَا مثل الجمِيع تعيشُ ظروفَنَا الصَّعبةَ ، تقولُ لنَا دَائِمًا :

- إنَّ الشمسَ لابدَّ أنْ تَشْرُقَ مهمَا غَابت، وعلينَا أنْ نصبرَ وننْتظِر، ولا تسمحُ لَنَا أنْ نشكرَهَا. وإنْ فعلَ أحدُنَا ذلكَ تقولُ:

- إنَّ الإنسانَ أخٌ للإنسانِ فِى أىِّ مكانٍ فَوقَ الأَرْض، ولابدَّ أنْ يعينَ القوىُّ أخَاه الضَّعيفَ،وأنا سعيدةٌ بِعَمَلى هَذَا.

- وَمَنْ ينظرُ إلينا يعرفُ مهنةَ كلِّ واحد منا: كُلُّ واحدٍ منَّا له رائحةٌ مُختلفة.. هذا ملابسُه مُلَطَّخة بآثارِ دهَانِ الأَحْذية، له رائحةٌ معروفةٌ، وصندوقه الخشَبى لايفارِقُه أبدًا، يلمعُ الأحذيةَ طمعًا فى أَجرٍ يكْفِى لُقْمته هو وإخوته. والحذاءُ دائمًا يكون للأغراب، فنحنُ أصحابُ الأرضِ لانلمعُ أَحْذيتنا إن وُجِدَ الحِذَاء.

تقولُ الطبيبةُ عنى :

- ومِنْ ملابِسِى تنطلقُ رائحةُ ماءِ الزَّهْرِ والسُّكر، يتندَّرُ علىَّ الأولاَدُ قَائِلين:

- إنهم سوفَ يأْكلُوننِى يومًا .

أمَّا سَعيد.. تفوحُ منه رائحةُ الزَّيتون، فهو يعملُ فِى مَعْصَرةٍ للزَّيتون، وإن عَصَرْنَا ملابسَه، يُمْكِنْ أَنْ نملأَ وعَاءً صغِيرًا بخليطِ الزُّيوت.

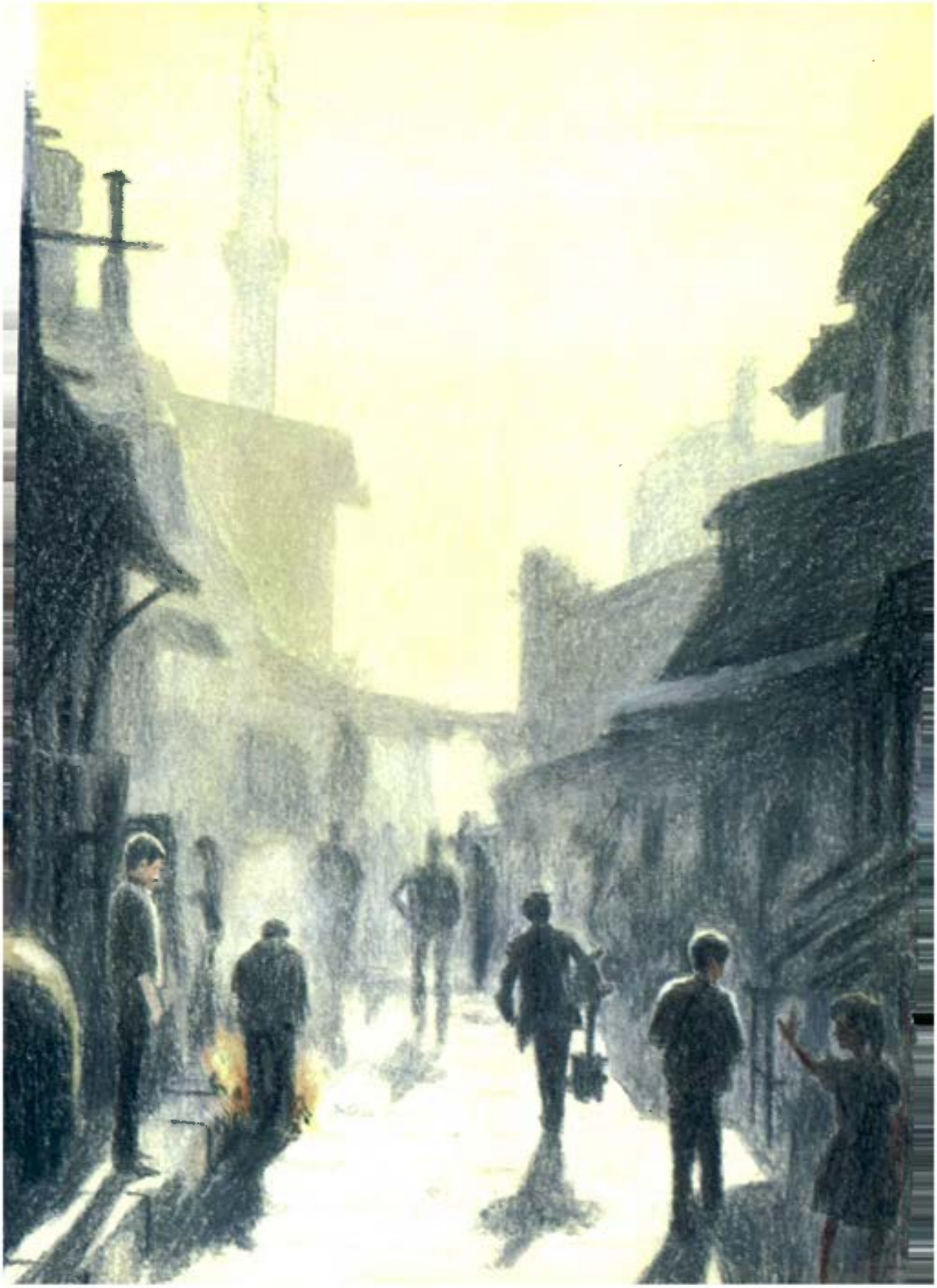

كلُّ شيءٍ حولَنا، مِنْ آثار الخرابِ والدَّمار، فعندمَا نخرجُ مِنَ الخيمةِ لانسمعُ إلاَّصَوْتَ البارُودِ والرصَاص، ولانَرَى إلاَّالخرابَ وبقَايَا الأشيَاء مُتناثِرَةً هُنَا وهُنَاك.

اعتدنَا رُؤْيةَ الخرائبِ، تنعِقُ فيهَا البومُ والغرْبَان، حتَّى أننَا نعتقِدُ أَنَّ تلكَ الطُّيور تتمتعُ بأمنٍ وسَلاَمٍ نحسدهَا عَليهمَا.

ومنْ يدْرِى، قد تهربُ الغربانُ - فِرَارًا - منْ صوتِ المدَافعِ والنِّيرانِ التِى تُحاصرهَا. وحينمَا ينتهِى اليومُ الدِّراسى نخرجُ - جماعَاتٍ - نَمْشِى فى طُرقٍ طَوِيلةٍ شدِيدَة الظُّلْمَة، نعبرهَا عَائِدِينَ إلى بيوتنَا.

-وهناكَ فِى دَارنَا، أجدُ أُمِّى وأُخْتِىصَابحة فى انتظارِى، أَنا حميد عاملِ الحَلْوى.

❁ ❁ ❁

باكرًا يصحُو حَمِيد، يتوضَّأُ بمَاءٍ بَارد، ادَّخرتْهُ أُمُّه مِنْ ليلَة أَمْس، يُصَلى ويحمدُ ربَّه، وإذَا ما انتهى منْ صَلاَته،

تكونُ أُمه قد أعدَّت أشياءَه، ووضعتْهَا فِى المنْدِيل، إنهَا أدواتُ المدرسَةِ مَعَ رَغيفٍ جَاف.

الله معه، سوفَ يتغيبُ اليومَ بطُوله، يخرجُ منَ المصنعِ ليلحقَ بالمدرسَةِ اللَّيْلية، يشقَى كثيرًا فهو رجلُ البيتِ بعدَ وفاةِ الأب.

وَمنْذُ ذلكَ الحِين ، يخشَى حميدُ مُفَارَقةَ أُمِّه فهو الآنَ قُرَّةُ عينهَا، بعدَ إصابتهَا بتلكَ الشظايَا التِى ذهبتْ ببصَرِهَا.

يَتَسللُ حميد خارجًا منَ الدَّار، قبلَ أنْ تَسْتيقظَ أختُه صابحةوتطالبُه بأشياءَ لايقدرُ عَلى شِرَائهَا، تتحسَّسُ الأُمُّ طريقَهَا إلى البَاب، تُوَدِّعه بصَوْتها الحنُون:

-اوع لنفسك يا حميد.

-لاَ تخَافِى عَلىَّ يا أُمِّى.

فِلْذَةَ كبدِى يَا ولَدِى: إنَّ الرصَاصَ فِى كُلِّ مَكَان، لايسْلَم منه صَغِيرٌ ولاَكَبِير، لكنَّ صابحة تسمعُ الصَّوْت؛

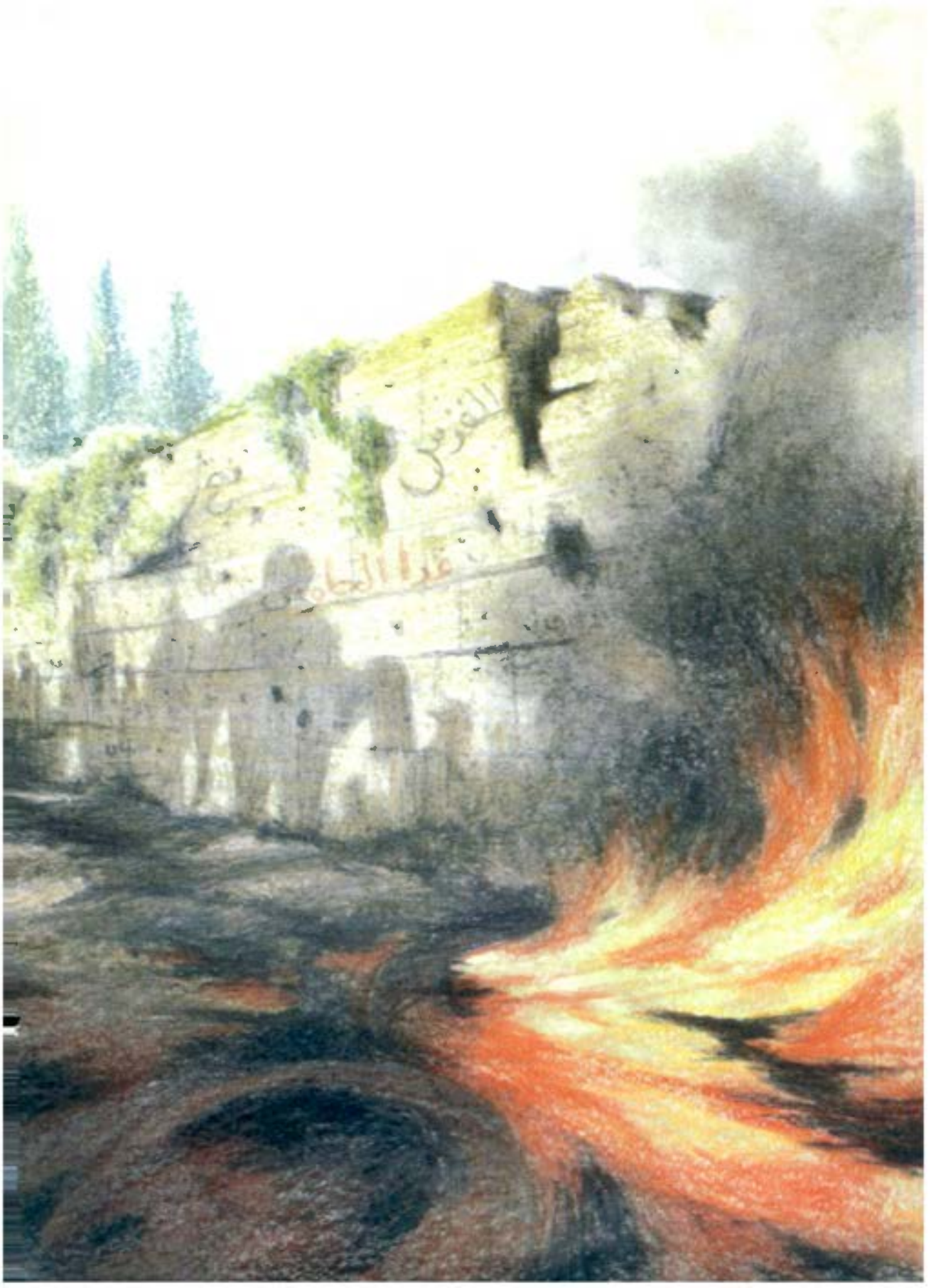

قالَ حميد فِى نَفْسِه:

-منَ الصَّعْبِ عَلَىَّ أنْ أرَى الحَلْوى بِعَيْنِى، ولاَ أستطِيعُ -حتَّى- أنْ ألعقَ مَا يَتعلَّقُ بأَنَاملِى مِنْهَا.

يسرعُ حميد الخُطَى، فالطريقُ إلى المصْنعِ شَاقٌّ وطَوِيل، يَمْشيه الصبىُّ عَلى قدميْه حَتَّى يُوفِّر أُجرةَ العَرَبَة.

فِى الطَّرِيق يَرَى أشيَاءَ حَكَت له أُمُّه أنهَا كَانت أَشيَاء جَمِيلَة، تلكَ الأرضُ الشرقيةُ الخَربة، كانت مزْرَعة كَبيرة للزَّيْتُونِ والبرتَقَال، ذبحَ أشجارَهَا جنُودُ الاحتِلاَل. أَمَّا ذلك الحطَامُ فهو مَا تبقَّى مِنْ كنيسَةٍ كان اسمها العائلةُ المقدسَة يبدُو أنه كَانَ بناءً عَظِيمًا وجَمِيلا، أزالَ المحتلُّ مَعَالمَه، ليصبِحَ مَخْزنًا للذَّخِيرةِ والسِّلاَح.

تنبَّهَ حميد، وتذكَّرَ أمنيةَ أُخْته، وكيفَ سَيُلَبِّيهَا. تذكَّرَ صراخَ زميلِهِ طارق حينَ ضبطَه الملاحظُ يدسُّ قطعةَ الحَلْوى فِى فَمِه، يومهَا ضُربَ ضَرْبًا أبكَى كلَّ العاملينَ فى المصْنَع. ولا يَنْسَ مَا حدثَ لزميلتِهِ سهَام، فقد تكررَ

فَتَسْتيقظ، تفركُ عينيهَا، تجرى لتلحقَ بأخِيهَا، تقفُ بِالبَاب:

-لا تَنْسَ الحلْوَى يَا حَميد.

-لنْ أنسى، سوفَ أحضرُ لَكِ اليومَ قطعةً كَبِيرَة.

-لَقَدْ وعَدْتنى مَرَّات، ولمْ تَفِ بوعْدِك.

مَشَى حميد وَلمْ يَرُد، أُخته تقولُ الحقَّ - لقد وعدهَا كثيرًا ولمْ يَصْدُق معهَا وَلاَ مرَّة، ليتَهُ كانَ يسْتَطِيع، يتمنَّى لو أحضَرَ لها فى كل يومٍ قطعةً منَ القطعِ اللَّذيذةِ الَّتى يُغلِّفُهَا بِيَده، لكنَّ ثمنَ القطعةِ يُسَاوِى أجرَه فِى اليوم، وإن اشتراهَا تجوعُ صابحة وأمُّه اليوم بِطُوله.

صابحة لا زَالت صَغِيرَة، لم تعرِفْ بعدَ أنه لايأكلُ الحَلْوى إلاَّ الأَغْرَاب؛ لأنهُمْ فقطْ يملكُونَ ثمنَهَا، وأنهم أصحابُ الأرض، ولا يمكنُ أَنْ تلامسَ الحلوى شِفَاهُم أبدًا، هُمْ فَقَطْ يَصْنعونَ الحلْوَى منْ أجْلِ الأغنيَاء.

تذكَّرَ حميد زملاءَه الفِدَائيين - الذين اسْتُشْهِدُوا فى مثلِ عُمره - واحدًا بعدَ الآخر، وَلَمْ تَرَ أعينُهم شكلَ الحَلْوى، وَهُوَ وحْده الذِى رَأى الحَلْوى.

مَا حدثَ يوم طارق، وضربَهَا الملاحظُ بالسَّوطِ عَلى قدمٍ واحدَةٍ، ظلتْ تعرجُ بعدَهَا أسبوعًا بأكْمَله. ألا يَحِقُّ لهمَا أَنْ يأكلاَ ولَوْ وَاحِدَةً مِنَ القِطَع التِى يصنعانهَا بأيديهما؟!

حَدَّثَ حميد نفسَه:

-يا إلهى مَاذا لوْ ضَبَطَنِى الملاحظُ أيضًا؟! لاَبُدَّ أَنَّ عَقَابى سيكونُ مِثْلَهُمَا، لكننِى سوفَ أُحققُ أَمنيتكِ يَاصابحة رغمَ كلِّ شَىْء.

اقتربَ المصْنع، هلَّت رائحةُ ماءِ الزَّهر المنْعِشة، هبَّ هواءٌ مُحَمَّلاً بِرَذَاذِ السُّكر. أخرجَ حميد طرفَ لسَانه ليلاَمِسَ الهواءَ اللذِيذَ وقالَ:

-لو أَنَّ صابحة تأتِى وتشمُّ معِى هذَا الهوَاء المنعشَ، وَتُعْفينِى مِنْ ذَلك الطَّلب الصَّعْب (قطعة الحلوى)!

يصلُ حميد إلى بَوَّابة المصْنَع، عندئذٍ تدقُّ الساعةُ الثامنةُ تمامًا؛ ليبدَأَ العَمَل.

وقفَ حميد فى مَكَانه عندَ طَاوْلة تغْليفِ الحَلْوى بأشكالهَا المُختلفة، وألوانهَا الزَّاهِيَة، يُجَاوِرُه -دائمًا - زميلُه سَالم، ولدٌ مهذَّبٌ ولطيفٌ وهَادئ الطبع وقلِيل الكَلاِم، لمْ يرهُ

يومًا يُصَاحبُ أحدًا منَ الزُّمَلاء، ولمْ يعْلَم حميد سببًا لِذَلك.

تَحَيَّرَ حميد.. أَىَّ القطعِ سيختارُ ليأخذهَا معه لصابحة هلْ هَذِه، أم تِلْكَ؟ شَعَرَ سَالم بمَا يدورُ فِى رأسِ جَاره؛ فذكَّرَه مُحَذِّرًا أنَّ هناكَ صقرًا يرَاقِبهُم، يَرَى النملةَ فِى جُحْرهَا. لكنَّ حميد لمْ يستمعْ إلاَّ لأمنيةِ أُخته. أخذَ واحدةً، لفَّهَا ودسَّهَا فِى جَيْبه بِحِرْص، ومِنْ فَرْحته ظلَّ يعملُ بسُرْعة ومَهَارة, ولَمَّا انتهَى مِنْ عَمَله، وقفَ أمامَ الفرنِ يُسَوِّى حَلْوى المَلْبن، وأنهَى تَسْوِيته كُلَّه. اشتغلَ حميد كثيرًا، حتَّى أَنَّ الملاحظَ الصقرَ قَالَ:

- أنتَ اليومَ اشتغلتَ شغلَ يوميْنِ يا حميد ..

❋ ❋ ❋

انصرفَ الصبىُّ بسُرْعةٍ إلى البيت، يخطُو بحرصٍ شَدِيد، كأنه يحملُ كِنزًا يَخْشى عَليه. وفى الطَّرِيق رَأَى سالمًا متوجِّهًا إلى الجَامِع لأداءِ الصَّلاَة، فمنعَهُ الجندُ كَمَا مَنَعُوا آخرِين. التفَّ حَوْله الأولاد، فزعَ عَلَيهم، أطلق الجندُ

الرصَاصَ، سقطَ بعضُهم، ومِنْ بينهم سَالم، حدث كلُّ هذَا فِى لَحَظات.

أسرعَ المارةُ يحملُونَ الأَطْفال، جَرَى حميد نَحْوهم متوجِّهًا إلى زَمِيله سالم، وحَمَله معَ آخرين إلى المستشفَى، لكن للأسفِ كانَ المستشفى مهْجُورًا، تغنِّى فيه البُومُ والغِرْبَان، أسرعُوا بالصَّبى إلى أُمه فقدْ تستطيعُ أنْ تُدَاويه.

وما إن رَأَت الأم صغيرهَا حتَّى صَرَخت:

- ابنتى سلْمَى.. مَاذَا بكِ يَا حَبِيبَتِى؟ مَاذا حدثَ لكِ؟

ولمَّا نَظَرت للجرَاحِ، انحبسَ الصوتُ فى قلبهَا، وذهبَ عنها جميعُ الرفاقِ إلا «حميد». جلسَ حميد مُنْدَهِشًا، عجبًا.. هل زميلُه سالم مَا هو إلا سلْمَى ابنَة هَذِه السيدة؟ لهذَا كَان سُكُوته وعُزلته وقِلَّةُ حَدِيثه!

قطعَ أفكارَه نحيبُ الأم ونَهْنَهاتِهَا..

- آه... يا صَغِيرتى! لمْ أنجبْ غيرهَا، هى ابنتِى الوَحِيدة، تمنيتُ كَثيرًا أنْ يرزقَنِى الله بوَلَد؛ لأهَبَه للوطَنِ يدافِعُ عنِ الأرضِ والعِرْض، أفتَخِرُ به بينَ الأمهاتِ، وأدخلُ مَعَه الجنةَ إنْ ماتَ شَهِيدا، ولمَّا ولَدتهَا أُنثى لمْ أخلفْ وَعْدِى.

ومنْ يومهَا لبستْ سلْمَى ملابِسَ الأولاَدِ، وعَمِلَت بَيْنَهم، وأتمنَّى أَنْ تَكْبر، حتَّى تصبحَ مِنَ الفِدَائيين.

بَكَى حميد لبكَاءِ السيدةِ التى قامتْ تُصَلى وتدْعُوا الله فلا تملِكُ إلاَّ الدعَاء، بعدما مَزَّقَ الرصاصُ صَغِيرتهَا.

قامَ حميد بدوْرِه يتوضَّأُ ويُصَلى، داعيًا أَنْ يُعَافى الصغيرةَ ويعفُوَ عنهَا، وأن تنهضَ من فراشهَا لتقرّ عينٌ أمهَا، ودعَا أنْ يأتى ذلكَ اليومُ الذِى يرحلُ فيه المحتلُّ عَنْ أرضِهم، حينئذٍ تلبسُ سلْمى ملابسَ البناتِ، وتزينُ شعرهَا مِثْلَهنَّ بالشرائطِ الملوَّنة.

❋ ❋ ❋

وصلتْ أم حميد تستندُ إلى صابحة بعدَما دَلَّهُمَا إلى الدارِ أحدُ الجيرَان، جلستْ إلى سلمى، تضمِّدُ جراحهَا، وتحاولُ إخراجَ الرصَاصَات والشظايَا منْ جسدهَا، أُمُّ حميد لهَا دِرَاية بالتمْرِيض، مثلُ أكثرِ الأُمهات؛ منْ كثرةِ ما رأَيْنَ من جراحٍ وآلام.

انتهتْ أم حميد، وجلستْ تقرأُ بعضَ آياتِ القُرْآن، بينمَا تضعُ يدهَا على صَدْرِ سلمى، حينئذ فتحَتِ الصغيرةُ

عينيهَا مُبْتسمةً، ثُمَّ أغْلقتهمَا.تذكَّرَت أم حميد أبناءَهَا الفِدَائيين، الصَّبية الصِّغَار، الشهدَاء الأطْهَار، فكان لكلٍّ منهم حِكَايته، لنْ تكونَ سلْمى آخرَ الشهداءِ الأطْفَال. تذكرتْ ذلكَ وحَكَتْ لأم سلْمى.

رأَتْ أم حميد أرواحَ أبناءهَا الشُّهَداء، يُحَلقونَ فِى الفضَاء، يقتَربُونَ ليصْحَبوا مَعَهُمْ الصَّغيرةَ سلْمى، حَلَّقت الصَّغِيرةُ معهم عَاليًا ترتدى ثوبًا أبيضَ فَضْفَاضًا من حرِيرٍ ومُطَرَّزًا باللُّؤْلؤ.

فرحَتْ أم حميد وابتسمَتْ للصغَارِ الأطْهَار.

تبسَّمَت لها سلْمى قائلةً :

- بشرِى أمى بأنى بِخَيْر، وأَشَارتْ إلى رِدَائهَا قائلةً :

- أرجو أنْ تَصِفى لها رِدَائى الجمِيلَ هَذَا.

بَلَّغتْ أم حميد الرسالةَ لأمِّ سلْمى.

تركتْ أم حميد السيدةَ بعدَ أَن اطْمَأنت على سَلاَمتها، ثم عَادت إلى بيتهَا برفقةِ ابنتهَا وابنهَا.

وهناكَ أَعْطى حميد لصابحة قطعةَ الحَلْوى، التِى لم تزلْ بِجَيبه. قذفتْ بهَا صابحة بعيدًا، سألهَا حميد:

- لِمَ فعلتِ ذلك؟ أليستْ هَذِه هى أُمنيتك؟

قالت صابحة :

- لَمْ تعد الحلْوَى أُمنيتى، أتمنَّى ألا يموت طفلٌ عَلى يَدِ المُحْتل الظَّالم، أتمنَّى أنْ نمارسَ صَلاَتنا بحُرِّية، وألَّاينهدِمَ مَكَان للعبادَة، ولَنْ آكلَ الحلْوَى أبدًا إلاَّ من جُهدنا، معَ جَمِيع جِيرَاننا وأخوَاتنا.

شعرَ حميد أنَّ صابحة أكبرُ كثيرًا ممَّا كانَ يظُن. قال:

- لقدْ كَبرت يا صَاحبة وفهمْتِ كُلَّ شَىء. الآن اطمأنَّ قلبى لأن أتركَ أمى فِى رِعَايتك، وأستطيعُ المشاركةَ مَعَ الفدائِيين، أقضِى يومًا فى المصْنعِ ويومًا فى الجهَاد، حتَّى يأتِى ذلكَ اليومُ الحلوُ الذِى أوزعُ فيه الحَلْوى عَلى كلِّ أطفالِ بلدنَا. وسوفَ يَأْتِى ذلكِ اليومُ قريبًا إنْ شَاء الله.

شَدَّت الصبيةُ على يد أخيها قائلةً:

- وأنَا أنتظرُ ذلكَ اليومَ يا أَخِى، فهيَّا لنحققَ أَمَانينَا الجَدِيدَة.